الفصل الثانى

رفاعة الطهطاوى فى عصره

١ – نشأته الأولى

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، وإليها ينسب ، وفيها تلقى علومه الأولى ؛ وفى سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) وفد على القاهرة ، والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيها دروسه ؛ فلما أتمّ الحادية والعشرين من عمره أصبح أهلا للتدريس ، فدرس فى الأزهر ، وكان يتردد أحياناً على مدينته طهطا فيلقى على أهليها بعض دروسه.

وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه ، وكانت حلقات دروسه فى السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلامذة والمشايخ . يقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدى :

« وكان – رحمه الله – حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى فى الحديث ، والمنطق والبيان ، والبديع ، والعروض ، وغير ذلك ؛ وكان درسه غاصا بالجمّ الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأساوب ، سهل التعبير ، مدققاً محققاً ، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقه ولا تعب ، ولا كدّ ولا نصب » .

---

(١) صالح مجدى « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وكان من حسن حظ رفاعة أنه تتلمذ فى الأزهر على الشيخ حسن العطار ، فقد كان هذا الشيخ — كما سبق أن ذكرنا — سابقاً لعصره ، طوف فى الأرض وسافر براً وبحراً ، وزار الشام، ووصل فى تطوافه إلى الآستانة ، وأقام بها سنوات وأفاد من هذه الرحلات ، واتسع أفق تفكيره، ولما نزلت الحملة الفرنسية بأرض مصر اتصل ببعض علمائها ، ولقنهم اللغة العربية ، كما أخذ عنهم بعض علومهم ، وأعجب بما وصل إليه الشعب الفرنسى من رقى وحضارة ، وقارن فى نفسه بين علوم الفرنسيين التى رأى بعض مظاهرها فى دار المجمع ، واستمع لبعض أفكارها فى حديثه إلى علماء المجمع ، وبين علوم المصريين التى درسها ويدرسها فى الأزهر ، فرأى الفرق كبيراً والبون شاسعاً ، وتنبأ لهذا البلد بنهضة علمية سريعة تنهج فيها نهج أوربا ، قال : «لا بد أن تتغير حال بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها» وبدأ هو بنفسه ، فأقبل على كتب لم تكن تدرس وقتذاك فى الأزهر ، أقبل على كتب فى التاريخ والجغرافيا ، والطب والرياضة ، والفلك والأدب ؛ وقرأ الكثير من هذه الكتب وتفهمها ، غير أنه يبدو أن نظام التدريس فى الأزهر لم يكن ليسمح له أن يدرس بعض هذه الكتب ، أو ما أفاد منها ، فإن سمحت النظم فإن المجموعة التى كانت تحيط به من شيوخ وطلاب ما كانت لتستسيغ هذه العلوم أو تقبلها ، بل لعلها كانت تتهم المشتغلين بها بشىء من الزيغ عن الجادة ، والبعد عن علوم السلف ، وعما يجب أن يلتزمه رجل الدين.

ولكن العطار كان ذا شخصية فذة وطريقة جديدة ، لهذا لم يلبث أن اختص به نفر من تلاميذه الممتازين ، فقربهم إليه ، وأقرأهم ما كان يقرأ [1] ورغبهم فى هذه العلوم الجديدة فأقبلوا عليها ؛ وكان رفاعة أقرب تلاميذ العطار وأحبهم إليه ، وقد فرح الأستاذ بنبوغ تلميذه فى التدريس بعد تخرجه ، فلبث

---

(١) يقول (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤) : «وله رحمه الله (يقصد رفاعة) منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر» .

يشمله برعايته وحسن توجيهه حتى رشحه إماماً لإحدى فرق الجيش الجديد .

وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م أوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا ، وهنا أيضاً طلب إلى العطار « أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة »[١] .

سافر رفاعة ليكون إماماً للبعثة — لا طالباً من طلابها — ، ولكن رفاعة كان ذا نفس طموحة وآمال عريضة ، وحب للعلم ، وشغف بالبحث ، فأعد العدّة بينه وبين نفسه أن يقبل على التحصيل منذ أن يغادر أرض مصر ، حتى يعود إلى وطنه خيراً مما غادره ، وقد برّ بوعده لنفسه ، فحصل فى فرنسا الكثير ، وكان أنبغ أعضاء بعثته ، ثم كان زعيم النهضة العلمية فى عصره وقائدها بعد عودته ، وهكذا أراد الله — كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين — « أن يكون الإمام فى الصلاة إماماً للحركة العلمية فى مصر »[٢] .

وذهب التلميذ الفتى للأستاذ الشيخ يودعه ويشكره ، ويسأله النصيحة ، فدعا له الشيخ وباركه ، وزوده بما يزوّد به الأستاذ المستنير تلميذه النابغ ، وطلب إليه قبل أن يغادره أن يعنى منذ اللحظة الأولى بتقييد مشاهداته فى رحلته هذه ، فالشيخ — كما يقول تلميذه — « مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الأمصار »[٣] .

وقد بر التلميذ بوعده ، فبدأ يسجل ملاحظاته منذ أن غادر الإسكندرية ، وبعد عودته قدم رحلته « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » إلى أستاذه ، فأعجب بها وقرظها اولى الأمر ، فطلبها وأمر أن تقرأ له ، وحازت رضاءه ، فأمر أن تترجم إلى اللغة التركية ، وأن تطبع النسختان : العربية والتركية فى مطبعة بولاق ، وأن توزع نسخ من الطبعتين على موظفى حكومته .

(١) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) أحمد أمين : « زعماء الإصلاح » .

(٣) رفاعة : « تخليص الإبريز » ، ص ٤ .

٢ ـ رفاعة فى باريس

فى يوم الخميس من شهر رمضان سنة ١٢٤١ هـ (٢٤ أبريل ١٨٢٦م) أبحرت السفينة من الإسكندرية تحمل رفاعة وزملاءه ، وفى التاسع من شهر شوال وصلت بهم إلى مارسليا ، ومنذ وطئت قدما رفاعة أرض هذه المدينة بدأ يتعلم اللغة الفرنسية . يقول فى رحلته : « وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوماً التهجى » .

وفى باريس قضى تلاميذ البعثة جميعاً نحو سنة ، وهم يقيمون معاً فى بيت واحد ، ويشتركون معاً فى دراسة مواد واحدة . يقول رفاعة : « كنا نقرأ فى الصباح تاريخ ساعتين ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعه ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة » .

وكانت هذه الخطة ترمى إلى عزل تلاميذ البعثة حتى لا يفسدهم الاختلاط ، أو الحياة فى باريس ، وحتى يستطيعوا التوفر على دراستهم ليحصلوا العلوم التى يريدون على أحسن وجه ، وفى أسرع وقت ، ولكن هذه العلوم التى أوفدوا لدراستها مودعة فى بطون المؤلفات الفرنسية ، ولا سبيل إليها إلا بإتقان هذه اللغة ــ حديثاً وقراءة وفهماً ــ ، ولا سبيل إلى هذا الإتقان إلا أن يختلط هؤلاء الشبان بأندادهم من الفرنسيين حتى تستقيم ألسنتهم .

أحس بهذا النقص المشرفون على البعثة ، كما أحس به أعضاء البعثة أنفسهم ، لهذا صدرت الأوامر بتوزيع هؤلاء المبعوثين ، فتفرقوا « فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص ، عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم . . . » ، وفى هذه المكاتب أو « البانسيونات » كان التلاميذ المصريون يقضون ليلهم ونهارهم فى التحصيل ، ولم يكن يسمح لهم

بالخروج إلا فى يوم الأحد ، أو بعد ظهر الخميس ، أو فى الأعياد الفرنسية ؛ وكان يحدث أحياناً أن يخرج بعضهم بعد العشاء إن لم يكن يشغله درس أو واجب .

وكان رفاعة أكثرهم انهماكا فى عمله ، وأشدّهم إقبالا عليه ، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه فى النهار ، فكان يقضى معظم ساعات الليل ساهراً بين كتبه ودروسه يقرأ ويتفهم ويترجم ، حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف ونصحه الطبيب بالراحة ، ونهاه عن المطالعة فى الليل ، ولكنه « لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه »(١) .

ولم يقنع رفاعة بالكتب التى تشترى له على حساب البعثة ، فقد شعر بلذة المعرفة ، فأقبل يشترى كتباً أخرى من ماله الخاص ، ثم أدرك أن دروس أساتذته لا تكفى لإشباع نهمه ، فاستأجر معلماً خاصا يدرس له أكثر من سنة ، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص .

أرسل رفاعة إلى فرنسا ليكون إماماً للبعثة ، ولكن يبدو أن الأوامر صدرت فى آخر لحظة أن يسمح له بالدراسة ، فإن أقبل ووفق فليوجه إلى إتقان الترجمة وذلك لأن ثقافته الأزهرية فى اللغة العربية ترشحه لهذا العمل إذا ألم باللغة الفرنسية وأتقنها ؛ وهذا عمل واسع عريض ، لأنه غير محدود ، فحكومة ذلك العهد كانت مقبلة على الترجمة فى كل علم وفن : فى الهندسة والطب ، والفنون العسكرية ، والتاريخ والجغرافيا . . . إلخ ؛ فواجب رفاعة إذن أن يقرأ كتباً فى كل هذه العلوم ، وأن يمرن على الترجمة فيها جميعاً ، وياله من واجب شاق ! ! ولكن همة رفاعة كانت همة عالية ، فاستسهل الصعب ، وأقبل ووفق .

وقد ذكر رفاعة فى رحلته العلوم والفنون التى درسها ، وعين الكتب التى قرأها والتى ترجمها أو بدأ يترجمها فى باريس ، ومنها نلحظ أن ثقافته كانت موسوعية

---

(١) « تخليص الإبريز » ، ص ١٧٢ .

(٢) من تقرير أستاذ رفاعة المسيو « شواليه » ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

فقد قرأ كتباً كثيرة فى مختلف العلوم مع أساتذته ، ثم قرأ كتباً كثيرة أخرى وحده ، وإنا لنحس فى جهوده التى ذكرها أنه ما كان يفرغ من قراءة كتاب فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون حتى يقبل على ترجمته ، يريد بذلك أن ينقل لمصر وبنيها هذا العلم الجديد عله يبعثهم إلى نهضة جديدة تنتهى بهم إلى أن يكونوا كأبناء أوربا حضارة ورقيا ، ولكن أنى له الوقت لترجمة هذه الكتب جميعاً ؟ ومع هذا فقد بدأ ، وترجم كتباً أو رسالات صغيرة ، ثم ترجم فصولا من الكتب الكبيرة ، وكأنى به قد ترك الباقى حتى يعود لمصر ، فيتم ما بدأ ، وقد فعل ؛ ولكن جهده جهد إنسانى محدود ، ووقته وقت محدود ، وهنا ترقب الفرص — بعد عودته — حتى سنحت فعرض مشروعه لإنشاء مدرسة الألسن ، وقد أنشئت ، واتسعت بعد إنشائها حركة الترجمة ، واستطاع رفاعة أن يحقق بعض آماله ، ويؤيدنا فى هذا أن معظم الكتب الأولى التى ترجمها خريجو الألسن هى الكتب التى قرأها رفاعة فى باريس ، والتى كان يتمنى أن يترجمها بنفسه[1] .

قضى رفاعة سنة فى باريس ، ثم عقد له ولزملائه امتحان فى نهاية هذه السنة ، فنجح رفاعة بتفوق ، وأرسل إليه « مسيو جومار » مدير البعثة جائزة التفوق وهى كتاب « رحلة أنخرسيس إلى بلاد اليونان » فى «سبعة مجلدات جيدة التجليد ، مموهة بالذهب » ، وأرسل إليه مع الجائزة خطاباً كله تشجيع وتقدير لما بذل من جهد ولما نال من نجاح [2] .

وبعد عام آخر عقد امتحان ثان فوفق فيه كما وفق فى سابقه ، وكانت جائزته هذه المرة كتابين من تأليف المستشرق الفرنسى « دى ساسى » ، وهما : « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور من منظوم ومنثور »[3] .

---

(١) انظر تقرير رفاعة عن الكتب التى قرأها وعن جهوده فى الدراسة والترجمة إبان إقامته فى باريس فى : (رفاعة : « تخليص الإبريز » ، ص ١٨٦ — ١٨٧) و (الشيال : « رفاعة الطهطاوى» ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢١ — ٢٤) و (الشيال : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على» ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٢٥ - ١٢٦) .

(٢، ٣) « تخليص الإبريز » ، ص ١٩١ — ١٩٢ .

وفى باريس اتصل الشيخ رفاعة بكبار المستشرقين الفرنسيين ، وخاصة : « بسلفستر دى ساسى » و « كوسان دى برسيڤال » ، ونشأت بينه وبين هذين العالمين صداقة متينة ، وكان كل منهما يقدر جهد الشيخ التلميذ وعلمه ، وقد تبودلت بينه وبينهما رسائل كثيرة ، أثبت بعضها رفاعة فى رحلته ، وقد أطلعهما قبيل عودته على مخطوطة رحلته ، فأعجبا بها ، وكتبا عنها تقريظاً ، وأرسل كل منهما للمسيو « چومار » — مدير البعثة — خطاباً كله ثناء وتقدير لرفاعة وكتابه[١] .

وبعد خمس سنوات عقد لرفاعة الامتحان النهائى ، فجمع « چومار » مجلساً كان القصد منه — كما يقول رفاعة — : « معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا . . . »

وتقدم رفاعة إلى لجنة الامتحان بخلاصة جهوده فى الترجمة ، وهى اثنتا عشرة رسالة ترجمها عن الفرنسية إلى العربية ، وهذا بيانها :

١ — نبذة فى تاريخ إسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ القدماء .

٢ — كتاب أصول المعادن .

٣ — روزنامة (تقويم) سنة ١٢٤٤ ، ألفه مسيو « چومار » لاستعمال مصر والشام ، متضمناً لشذرات علمية وتدبيرية .

٤ — كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم .

٥ — مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على « مسيو دهنبلض » .

٦ — قطعة من كتاب « ملطبرون » فى الجغرافية .

٧ — ثلاث مقالات من كتاب « لجندر » فى علم الهندسة .

٨ — نبذة فى علم هيئة الدنيا .

٩ — قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية .

---

(١) انظر نص الخطابات فى المرجع السابق ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

١٠ – أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج .
١١ – نبذة في الميثولوجيا – يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم .
١٢ – نبذة في علم سياسات الصحة .

كذلك قدم رفاعة للجنة الامتحان كراسة أخرى فيها مخطوطة رحلته إلى باريس، وذلك لأن هذه الرحلة ليست تأليفاً كلها ، بل فيها نبذ كثيرة مترجمة في مختلف العلوم .

ولم تقنع لجنة الامتحان بهذه الجهود المكتوبة ، ورأت أن تختبره اختباراً شفهياً لتتأكد من مقدرته على الترجمة الصحيحة ، فأحضرت له بعض الكتب المطبوعة في بولاق ، فترجم بعض فقراتها بسرعة ، ثم « قرأ بالفرنساوى مواضع منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير في « كازيطة » مصر المطبوعة في بولاق (يقصد الوقائع المصرية) .

ووفق رفاعة في هذا الامتحان ، وقررت اللجنة أنه تخلص من هذا الامتحان على وجه حسن ، « فأدى العبارات حقها من غير تغيير في معنى الأصل المترجم » ، ولكنها أخذت عليه أنه « ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، من غير خلل في المعنى المراد » ، واعترض عليه في الامتحان بأنه في بعض الأحيان قد لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، « ولكن من غير أن يقع في الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلي »[1].

اجتاز رفاعة الامتحان بعد أن قضى في فرنسا خمس سنوات طوال ، أقام فيها على الدرس والتحصيل إقبال الطالب المجد المحب لعمله ، وقد قرأ في هذه السنوات كتباً شتى في علوم متباينة ، وترجم الكثير من هذه الكتب ، ولكنه

---

(١) « تخليص الإبريز » ، ص ١٩٤ .

شغف أكثر ما شغف بعلمى التاريخ والجغرافيا ، متأثراً بميله الخاص ودراسته الأدبية الأولى فى الأزهر – فرشح نفسه لترجمة هذين العلمين ، فهو يقول فى خاتمة رحلته : « وإن شاء الله تعالى . . . يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا . . . فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله . . . »[1].

٣ – جهود رفاعة الأولى بعد العودة من البعثة

فى رمضان سنة ١٢٤١ هـ غادر رفاعة الإسكندرية مرتحلا إلى فرنسا ، وفى رمضان سنة ١٢٤٦ غادر باريس عائداً إلى مصر ؛ خمس سنوات كاملة تغير فيها الشيخ عقلا وعلماً ، وتفكيراً وآمالا ، لكنه لم يتغير ، بل لم يتأثر ديناً وأخلاقاً. يقول على مبارك : « ولم تؤثر إقامته بباريز أدنى تأثير فى عقائده ، ولا فى أخلاقه وعوائده . . . »[2].

وسافر إلى القاهرة ، وكانت قد سبقته إليها تقارير مسيو « جومار » الكثيرة عنه ، وكلها مدح وتقريظ لجهوده ، وتقدير لعمله ، فانتهى به الأمر إلى تعيينه مترجماً بمدرسة الطب .

لبث رفاعة مترجماً فى مدرسة الطب نحو سنتين ، ويبدو أنه كان فى هذه المدرسة مصححاً ومحرراً أكثر منه مترجماً ، إذ لم يعرف أنه ترجم فى الطب غير الرسالة الصغيرة التى ترجمها وهو فى باريس وضمنها رحلته ، ولكنه قام فى هذه الفترة بمراجعة كتاب « التوضيح لألفاظ التشريح » فى الطب البيطرى ، الذى

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .
(٢) على مبارك : « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

ترجمه يوسف فرعون ، وصححه الشيخ مصطفى حسن كساب .

وفى سنة ١٢٤٩هـ نقل رفاعة مترجماً بمدرسة الطوبجية بطرة حيث قام بترجمة بعض الكتب الهندسية والجغرافية اللازمة لطلاب هذه المدرسة ، ومنها «كتاب الهندسة» ، وكتاب «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية» .

وفى أوائل سنة ١٢٥٠هـ ظهر فى مصر مرض الطاعون ، وانتشر فى القاهرة وفى كثير من المدن الأخرى ، فطلب رفاعة إجازة وسافر إلى بلدته طهطا ، ولبث هناك نحو ستة أشهر ، زار خلالها الأهل والأقارب ، ولكنه لم ينعم بالراحة ، بل حمل معه الجزء الأول من «جغرافية ملطبرون» Malte Brun . وكان قد بدأ فترجم منه صفحات وهو فى باريس ، فأكمل ترجمة الجزء الأول كله .

٤ ـ رفاعة ومدرسة الألسن

ا ـ مدرسة الإدارة الملكية

كانت البلاد فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عدد كبير من الموظفين المثقفين ثقافة جديدة لينهضوا بإدارة ما أنشأت الحكومة من دواوين ومصالح وأقلام ، فكانت المحاولة الأولى إنشاء مدرسة الإدارة الملكية فى جمادى الأولى سنة ١٩٥٠هـ (١٨٣٤ م) فاختير لها ثلاثون تلميذاً من تلاميذ الدرسخانة الملكية ، وعين للتدريس بها أرتين شكرى وأسطفان رسمى عضوا البعثة إلى فرنسا وهما اللذان تخصصا بدراسة الإدارة الملكية .

ونصت لائحة المدرسة على أن تدرس مادة الترجمة دراسة عملية للتلاميذ ، فإنه «لما كان من أغراض المدرسة تخريج مترجمين وموظفين لفروع الإدارة

المصرية ، فقد أشارت اللائحة بأن يقدم للتلاميذ — بعد تقدمهم فى اللغة الفرنسية — كتب فى التاريخ سهلة ، وتترجم لهم درساً درساً ، حتى إذا تمت ترجمة الكتاب وإصلاحه قامت المطبعة على طبعه ، وأنه لأجل حصول ائتلاف التلامذة بالمصالح المصرية تقدم للمدرسة نسختان من الوقائع المصرية ، وتترجم لتلاميذها المواد المشتملة على عمارية الملك بجرنالات أوربا »[1] .

غير أن هذه المدرسة لم تعمر طويلا ، فقد ألغيت بعد قليل ، ونقل تلاميذها إلى مدرسة الألسن فى آخر سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٦ م)

ب — مدرسة التاريخ والجغرافيا

أنشئت فى حدود سنة ١٢٥٠هـ ، وألحقت بمدرسة المدفعية ، وكان ناظرها ومدرسها الوحيد هو رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان القصد من إنشائها تخريج مدرسين للجغرافيا فى المدارس الحربية المختلفة ، وقد ألغيت هذه المدرسة عند إنشاء مدرسة الألسن ، وبهذا كانت هاتان المدرستان الخطوتين التمهيديتين لإنشاء مدرسة الألسن .

حـ — مدرسة الألسن

أنشئت فى أوائل سنة ١٣٥١ هـ (١٨٣٥) باسم مدرسة الترجمة ، ثم غير اسمها فأصبح مدرسة الألسن ، وجعل مقرها السراى المعروفة ببيت الدفتردار بحى الأزبكية ، حيث كان يقوم فندق شبرد القديم .

(١) عزت عبد الكريم : « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ، ص ٢٢٨ (عن وثائق عابدين) .

(٢) انظر تفصيل الحديث عن هذه المدرسة فى : (الشيال : « رفاعة الطهطاوى » ، ص ٣٥ — ٣٩) و (الشيال : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » ، ص ١٣٢ — ١٣٤) .

وقد أنشئت هذه المدرسة تحقيقاً لاقتراح رفاعة الطهطاوى . يقول على مبارك : « ثم عرض (أى رفاعة للجناب العالى أن فى إمكانه أن يؤسس مدرسة ألسن يمكن أن ينتفع بها الوطن ، ويستغنى عن الدخيل ، فأجابه إلى ذلك ، ووجه إلى مكاتب الأقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع ، فأسس المدرسة»[١].

وكان تلاميذ المدرسة فى أول عهدها ثمانين تلميذاً ، اختار رفاعة معظمهم من مكاتب الأقاليم ، وضم إليهم تلاميذ مدرسة الإدارة الملكية بعد إلغائها ، ولكن هذا العدد زاد بعد ذلك حتى أصبح مائة وخمسين ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين ويرأس كل قسم أستاذه ، ويساعده بعض التلاميذ المتقدمين .

وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تزداد إلى ست سنوات ، وفى سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) اكتملت المدرسة ، وأصبح بها ٥ فرق ، وخرجت أول فريق من تلامذتها ، وكان تلاميذ الفرقة الأولى (أى الأخيرة) « يترجمون كتباً فى التاريخ والأدب ، ويقوم على إصلاحها أستاذهم ومدير مدرستهم رفاعة رافع ، ثم تقدم إلى المطبعة فتطبع وتنشر كتباً يقرأها المدرسون والتلاميذ . . . »[٢]

غير أن العناية بتدريس اللغات فى مدرسة الألسن لم تكن فى درجة واحدة ، فقد كانت العناية كبيرة بتدريس اللغتين العربية والفرنسية ، وذلك لأسباب واضحة ، منها أن كل التلاميذ كانوا من المصريين الذين يعرفون العربية ولا يعرفون التركية ، ومنها أن ناظر المدرسة وأستاذها رفاعة كان يتقن هاتين اللغتين ، ومع هذا فقد درست اللغة الإنجليزية وقتاً ما بمدرسة الألسن ، أما اللغة التركية فقد كانت العناية بها ضعيفة .

وقد عهد إلى رفاعة — إلى جانب التدريس — بإدارة المدرسة ، وكان من واجباته :

١ — أن يشرف على المدرسة من الناحيتين الفنية والإدارية .

---

(١) على مبارك : « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .
(٢) عزت عبد الكريم ، « المرجع السابق » ، ص ٣٣٢ .

٢ ـ أن يدرس للتلاميذ الأدب والشرائع الإسلامية والغربية .

٣ ـ أن يختار الكتب التى يرى ضرورة ترجمتها ، ويوزعها على المترجمين من تلاميذ المدرسة وخريجيها الملتحقين بقلم الترجمة ، ويشرف على توجيههم فى أثناء قيامهم بالترجمة ، ويقوم بمراجعة الكتب وتهذيبها بعد ترجمتها وكان رفاعة يرأس كل عام لجنة الامتحان التى تعقد لتلاميذ مكاتب المبتديان والأقاليم ، فيسافر إليها فى النيل ، ويمتحن تلاميذها ، ويصحب المتفوقين منهم ليلحقهم بالمدرسة التجهيزية الملحقة بمدرسة الألسن .

وكان إخلاص رفاعة لمهنته يدفعه إلى عدم التقيد بأوقات محددة للدراسة ، فكان يستمر فى الدرس ثلاث ساعات أو أربع ما دام يجد فى نفسه رغبة ، وفى تلاميذه قبولا . يقول على مبارك : « كان دأبه فى مدرسة الألسن ، وفيما اختاره للتلاميذ من الكتب التى أراد ترجمتها منهم ، وفى تأليفاته وتراجمه خصوصاً أنه لا يقف فى ذلك اليوم أو الليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة ، أو فنون الإدارة أو الشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأولى مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم فى الإنشاءات نظماً ونثراً أطروفة مصرهم ، وتحفة عصرهم ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة والتأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلا به »[1].

وقد حقق خريجو الألسن الغرض من إنشاء المدرسة ، فعين المتقدمون من أول فريق تخرج فى سنة ١٨٣٩ م مدرسين للغتين العربية والفرنسية فى نفس المدرسة وفى مدرسة المهندسخانة ، ولما أنشىء قلم الترجمة فى أوائل سنة ١٢٥٨ ﻫ (١٨٤١ م) ألحق به كل خريجى المدرسة ، غير أن الواحد منهم لم يكن يمنح

---

(١) على مبارك « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

الرتبة حتى يترجم كتاباً ، وقد ألحق كثيرون منهم مدرسين بالمدارس الأخرى ، أو موظفين بالمصالح المختلفة .

ثم نمت المدرسة بعد ذلك نمواً سريعاً ، فألحقت بها المدرسة التجهيزية ، وأنشئت بها أقسام جديدة لإعداد الموظفين الإداريين والقضاة ، وأدى هذا النمو إلى ازدحام المدرسة بالطلاب ، حتى كان التلاميذ من فرق مختلفة يجلسون فى حجرة واحدة لتلقي علوم متباينة على أساتذة متباينين ، فعمل رفاعة على تنظيم بناء المدرسة ، حتى صار « لكل درس محل مخصوص بباب مخصوص » .

د — قلم الترجمة

أنشىء فى أوائل سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤١ م) تنفيذاً لإشارة لجنة تنظيم التعليم فقد رأت اللجنة « أن الواجب يقضى بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة ، سليمة من الخطأ ، فلهذا ، ولكون ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ، بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابه ، فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين ».

وقسمت هذه الغرفة إلى أربعة أقلام :

١ — قلم ترجمة الكتب العلمية والرياضية .

٢ — قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية .

٣ — قلم ترجمة الأدبيات أو « المواد الاجتماعية » كالتاريخ والجغرافيا والمنطق والأدب والفلسفة والقوانين والقصص . . . إلخ .

٤ — قلم الترجمة التركية .

ثم ألحق بهذه الأقسام عدد من المبيضين لتبييض الكتب بعد ترجمتها وإرسالها إلى ديوان المدارس للاطلاع عليها، فكان يشير بطبع النافع القيم منها[1].

---

(١) راجع كتابنا : (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ص ٤٢ وما بعدها).

هـ ــ مصير هذه المؤسسة

عاشت مدرسة الألسن نحو الخمسة عشر عاماً بدأت تسيطر فيها على شؤون الثقافة العامة فى مصر ، وأنتجت فى إبانها الإنتاج العلمى الوافر ، فلما ولى العرش عباس الأول ــ ولم يكن على انسجام مع رجال جده وعمه ، وخاصة رفاعة ــ أخذ يسعى سعيه للقضاء على هذه المؤسسة الثقافية ، فبدأ بإلغاء قسم الفقه بالمدرسة ، ثم ثنى بتصفية تلاميذ المدرسة ، وفصل عدد كبير منهم ، وفى الشهر الأخير من عام ١٢٦٥ هـ (أكتوبر ١٨٤٩ م) صدر الأمر بنقل مدرسة الألسن إلى مكان مدرسة المبتديان بالناصرية ، وبذلك حرمت المدرسة مكانها ، ولم تمض أيام بعد ذلك حتى ألغيت مدرسة الألسن إلغاء تاماً فى المحرم سنة ١٢٦٦ هـ (نوفمبر ١٨٤٩ م) وضم تلامذتها إلى المدرسة التجهيزية قبيل إلغائها ، وفى أواخر سنة ١٢٦٦ هـ سافر رفاعة إلى الخرطوم ليكون ناظراً ومدرساً لمدرسة الخرطوم الابتدائية .

أما قلم الترجمة فقد خضع لتجربة جديدة فى الشهور القليلة التى ولى فيها إبراهيم باشا الحكم ، وصدر الأمر بتقسيمه تقسيماً جديداً إلى قلمين :

قلم للترجمة التركية ويشرف عليه «كانى بك» .

وقلم للترجمة العربية ويشرف عليه رفاعة بك .

غير أن إلغاء مدرسة الألسن فى أوائل عصر عباس قد استتبع إلغاء قلم الترجمة وخاصة بعد نفى رفاعة إلى السودان .

٥ ـ جهود علمية أخرى

ا ــ مراجعة الكتب المترجمة فى الفنون المختلفة

ستة عشر عاماً ظل فيها رفاعة ناظراً لمدرسة الألسن ومدرساً بها ، ومشرفاً على قلم الترجمة ، ومصححاً لجميع الكتب التى ترجمها تلاميذه ، ومع هذا فقد كان يلجأ إليه ــ فى تلك الفترة ــ المترجمون من أعضاء البعثات فى المدارس الخصوصية الأخرى لمراجعة ما يترجمون من كتب ، فقام ــ وهو يدير مدرسة الألسن ــ بمراجعة وتصحيح كتب مختلفة فى الطب والجغرافية والرياضيات ، نذكر منها على سبيل المثال :

ــ كتاب « نزهة المحافل فى معرفة المفاصل » الذى ترجمه محمد عبد الفتاح .
ــ كتاب « تحفة القلم فى أمراض القدم » للمترجم نفسه .
ــ كتاب « الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية » الذى ترجمه أحمد الرشيدى
ــ كتاب « الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية » الذى ترجمه أحمد فايد .

ب ــ تنظيم الوقائع المصرية

وفى هذه الفترة أيضاً ــ فى سنة ١٢٥٧ هـ ــ عهد إلى رفاعة فى تنظيم صحيفة الوقائع المصرية والإشراف على تحريرها ، فأحدث فيها تغييرات جمة ، وخطا بها وبتحريرها خطوات واسعات ، ففى تلك السنة كونت لجنة برئاسة مدير المدارس للنظر فى إصلاح الوقائع ، وعهد إليها بوضع « خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل ، كما هو الحال فى الممالك الأخرى » ، ورأت اللجنة بعد اجتماعها : « أن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس حتى يستفيد منها كل إنسان ، ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب ، وقد أصبح من اللازم إضافة بند للحوادث الخارجية فى الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة وشوق . . . وحيث أن نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على قراءة الجرائد التى تنشر فى الخارج ، ويستوجب أن يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة وتنظيمها ملما باللغتين ، وعلى ذلك فقد تقرر إحالة أعمال ترجمة

المواد المناسبة من الجرائد ، وعلاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعى « كذا» أفندى ناظر مدرسة الألسن . . . إلخ » .

وقد قام رفاعة بهذا العمل الجديد خير قيام ، وطبع الوقائع فى عهد تحريره بطابع جديد ، مستعيناً فى هذا بخبرة طويلة وثقافة فرنسية وعربية واسعة .

وتبدو جهود رفاعة فى إصلاح الوقائع واضحة جلية فى الأعداد التى صدرت بعد توليه رئاسة تحريرها ، فقد عنى باللغة العربية — لغة البلاد — عناية خاصة ، وأصبحت هذه اللغة فى الناحية اليمنى تتصدر الجريدة فى صفحاتها الأربع ، وأخذت التركية مكان اليسار ، وانتقلت موضوعاتها فجأة من توافه الأخبار والحوادث والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها ، لا فى الشرق وحده ، بل فى أوربا فى ذلك الوقت . . . »[1] .

قام رفاعة بهذه الجهود الشاقة خير قيام ، وبذل لها كل وقته وتفكيره وكان يدفعه إلى الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه وازع قوى من ضميره الحى ، وحب لوطنه وبنيه ، وتشجيع مستمر من الوالى ، ففى سنة ١٢٦٠ هـ أنعم على رفاعة برتبة القائمقام ، وفى سنة ١٢٦٣ هـ أنعم عليه برتبة أميرالاى لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية « ملطبرون » ، وبهذا الإنعام الأخير أصبح يدعى رفاعة بك ، بعد أن كان يدعى فيما مضى بالشيخ رفاعة ، أو مسيو رفاعة (فى باريس) أو رفاعة أفندى .

---

(١) إبراهيم عبده : « تاريخ الوقائع المصرية » ، ص ٥١ ؛ ولتأكيد هذا القول انظر مثلا افتتاحية رفاعة للعدد ٦٢٣ من الوقائع المصرية بتاريخ غرة ربيع الآخر سنة ١٢٥٨ هـ بعنوان « تمهيد » ، فقد بدأها بتفسير القول المعروف : « الناس على دين ملوكهم » وذلك فى العصور المختلفة ، ثم ذكر أن الناس فى عصره كانوا يتحدثون دائماً عن الأخبار الداخلية والخارجية ، وهذا ما يسمى بالبوليتيقة ، والمتكلم فى شأن ذلك يقال له بوليتيقى ، فما كان بين الدول والملل يقال له بولوتيقة خارجية ، وما كان فى دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بولوتيقة داخلية ، والغالب أن الغازيتات والوقائع هى التى تتكلم عن كل من البوليتيقة الداخلية والخارجية . . إلخ

٦ – رفاعة فى السودان

فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ ﻫ (١٠ نوفبر ١٨٤٨ م) توفى إبراهيم بن محمد على ، وفى ٢٧ من نفس الشهر تولى عرش مصر عباس الأول ، وكان محمد على لا يزال حيا يعانى من مرضه الأخير ، فلم يجرؤ عباس على تغيير ما يريد تغييره من الأوضاع القديمة، وفى ١٢ رمضان سنة ١٢٦٥ﻫ (٢ أغسطس ١٨٤٩م) توفى محمد على ، فاستقل عباس بالأمر .

ولم يكن عباس كجده وعمه ، بل لعله كان على النقيض منهما ، ولهذا يكاد يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية ، فإذا فهمنا سياسة عباس الأول على هذا الأساس لم يكن من العسير إذن أن نفهم لم أقفلت معظم المدارس الخصوصية فى أول عهده ، وكانت مدرسة الألسن أول مدرسة ألغيت ، وذلك أن مؤسسها وناظرها – رفاعة الطهطاوى – كان من المقربين لمحمد على وإبراهيم الحائزين لثقتهما ، لهذا نشأ بين عباس ورفاعة نوع من الكراهية وسوء التفاهم .

لم يوضح رفاعه نفسه ، ولا وضح المؤرخون المعاصرون الأسباب الحقيقية لذلك النفور ، مما دعا المؤرخين المحدثين إلى أن يذهبوا فى تفسيره مذاهب شتى ، فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى يرى أن لكتاب رفاعة تخليص الإبريز « سبباً يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ ﻫ أى فى أوائل عهد عباس ، والكتاب . . . يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس باشا الأول كان فى طبعه مستبدا غشوماً ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى كتاب رفاعة بلك مما لا يروق عباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له . . . »[١].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى « عصر محمد على » ، ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .

أما الدكتور عزت عبد الكريم فيرى أن هناك احتمالين لإبعاد رفاعة إلى السودان : أولهما سعى على مبارك : « الذى عاد من أوربا مليئاً بالأطماع ، والذى كان يحقد على رفاعة ما أصاب من مكانة ، وقد قرب عباس إليه على مبارك ، وأبعد رفاعة إلى السودان ، فلما خلفه سعيد قرب إليه رفاعة ، وأبعد على مبارك إلى القرم » ، والثانى « ما يحتمل أن يكون رفاعة قد لقيه من معارضة بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلاً على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه . . . »[1].

وهذه كلها تفسيرات احتمالية أو اجتهادية تفتقر إلى سند تاريخى مادى ، وأقربها إلى الواقع — فى نظرى — ما ذكره رفاعة نفسه من أنه سافر إلى السودان « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم »[2] ؛ وإن كان لم يذكر أسماء هؤلاء الأمراء ، أو ماهية الوشاية التى وشوا بها ضده .

غير أنه عاد فأشار إليهم وإليها فى إيضاح مستتر فى قصيدة نظمها وهو فى السودان مستغيثاً مما هو فيه بحسن باشا — كتخدا مصر — قال فيها :

وما خِلْتُ العزيزَ يريد ذلى ولا يصغى لأخصامٍ لداد
لديه سعوْا بألسنةٍ حداد فكيف صغى لألسنة حداد ؟
مهازيلُ الفضائل خادعونى وهل فى حربهم يكبو جوادى ؟
وزخرف قولهم إذ موّهوه على تزييفه نادى المنادى
فهل من صيرفِ المعنى بصير صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيمٌ بمصر ، فما النتيجة فى بعادى ؟[3] »

ويقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين : « وكان الشيخ ماكراً ، فقد وضع

---

(١) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) رفاعة : « مناهج الألباب المصرية » ، ص ٢٦٥ .
(٣) « المرجع السابق » ، ص ٢٦٨ .

القصيدة على وزن وقافية :

لقـــد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حيـــاة لمن تنادى»[١]

ومهما تكن الأسباب الحقيقية فإن عباساً قد أوعز فى شهر رجب سنة ١٢٦٦ إلى المجلس المخصوص برغبته ، واقترح هذا المجلس أن تؤسس مدرسة بالأقاليم السودانية إنقاذاً لأولاد أهلها والمستوطنين بها من حجيم الجهل ، وأن يقوم على تأسيسها ونظارتها رفاعة بك ، وأن يشترك معه فى التدريس علم من أعلام النهضة العلمية التعليمية فى ذلك العصر وهو محمد أفندى بيومى أستاذ الرياضيات فى المهندسخانة ، ورئيس أحد أقلام غرفة الترجمة ؛ وإنه من الجميل حقا أن نسجل لحكومة عباس أنها أول من فكرت فى إنشاء مدرسة مصرية فى ربوع السودان ، لو أنه كان خالص النية صادق الرغبة فى خدمة السودان وأبنائه ، ولكنه لم يكن كذلك ، وإلا فإن إنشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم لم يكن يستلزم أن يشرف عليها ويقوم بالتدريس فيها كبير رجال النهضة العلمية فى مصر : رفاعة وبيومى .

قضى رفاعة فى السودان نحو ثلاث سنوات قاسى فيها الأمرين ، لا كرهاً فى السودان ، فهو القائل على لسان مصر والسودان :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ   ـد جميعاً فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى   غرة كوكبية الانفلاق

إنما آلمه فى السودان شعوره بأنه منفى ، وتألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وخاصة بيومى أفندى صديقه فى باريس ومصر ، ووفيه فى الجهاد العلمى ، وصاحبه فى السراء والضراء ، يؤيد هذا قوله فى قصيدته السابق الإشارة إليها :

وحسبى فتكها بنصيف صحبى   كأن وظيفتى لبس الحـــداد

(١) أحمد أمين : « زعماء الإصلاح » .

ومع ذلك فقد تذرع هناك بالصبر والإيمان، وقام بواجبه فى مدرسة الخرطوم خير قيام ، وتخرج على يديه بعض أبناء مصر والسودان ، وقد بث شكواه فى قصائد كثيرة تعد من أجمل ما قال من شعر، ولم ينس أخيراً عمله الذى أحبه وأخلص له ، وهو الترجمة ، فشغل وقت فراغه بترجمة قصة « تليماك » التى طبعها أحد تلاميذه فيما بعد — فى بيروت — بعنوان : « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » ، وقد أشار فى مقدمتها إلى ما كان يحس — وهو فى منفاه — من ألم ممض ، وكيف استعان على تحمل هذا الألم باشتغاله بترجمة هذا الكتاب ، قال :

« وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس فيما قضاه الله مفر ، أقمت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى سعير الإقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه . . . . فما تسليت إلا بتعريب « تليماك » ، وتقريب الرجاء بدور الأفلاك . . . إلخ » .

٧ — أمير الآلاى رفاعة بك
ناظر المدرسة الحربية بالقلعة فى عهد سعيد

فى ٢٠ شوال سنة ١٢٧٠ هـ (يوليو ١٨٥٤ م) تولى سعيد عرش مصر ، فأسرع رفاعة ورفاقه بالعودة إلى مصر ، وسرعان ما تكررت الرواية القديمة ، فكما أن عباساً —عند توليته — الحكم — قد أبعد رفاعة إلى السودان ، وقرب إليه على مبارك ، وعينه ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، وعهد إليه بالإشراف على شئون التعليم، كذلك بدأ سعيد فأرسل على مبارك ليكون قائداً من قواد الحملة المصرية إلى القرم ، وقرب إليه رفاعة ، وحباه بعطفه .

بدأ رفاعة يرسم لنفسه الخطط ، ويعقد الآمال العريضة ، ونظم فى هذه الفترة القصائد الكثيرة يمدح بها سعيداً ، ويشيد بصفاته وعهده ، غير أن سعيداً لم يلبث أن أصدر أوامره فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ بإلغاء ديوان المدارس وتصفية حساباته .

ومع هذا لم ييأس رفاعة ، فقد كان إلى جانبه فى ذلك العهد عظيم من العظماء وهو إبراهيم أدهم بك – ناظر ديوان المدارس– ، وكان هذا الرجل قد وضع فى أواخر عهد محمد على مشروعاً لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب المصرى ، وهو مشروع « مكاتب الملة » ، فلما تولى عباس الأول الحكم أبعد أدهم فيمن أبعد ؛ وفى عهد سعيد بدأ أدهم يعيد النظر فى مشروعه وأشرك معه رفاعة فى إعادة تنظيمه وتنقيحه ، ثم تقدم به إلى الوالى الجديد سعيد باشا ، واقترح كما يقول الدكتور عزت عبد الكريم « تعيين رفاعة بك ناظراً عامًّا على هذه المكاتب ، على أن يلحق به مترجمون لإتمام ترجمة كتاب « ملطبرون » الذى تمت ترجمة أجزاء منه فى عهد محمد على ، وغيره من الكتب الصالحة » .

ولكن يبدو أن سعيداً لم يؤمن بفائدة هذا المشروع ، كما أنه كان مشغولا – فى ذلك الحين – بأمور يراها أكثر أهمية من مشروع مكاتب الملة ، كقناة السويس ، وإصلاح الجيش ، وبناء القلعة السعيدية . . . إلخ .

ومرت الأيام والشهور ورفاعة ينتظر دون أن يعهد إليه بعمل ما ، فبدأ يحس بالضيق – مادياً ومعنوياً – ، وأخيراً قدم إلى الحكومة التماساً يرجو فيه أن يعين هو وتلميذه القديم خليفة محمود فى أى مصلحة من المصالح ، وأن يعهد إليهما فى ترجمة الكتب النافعة ، غير أن سعيداً كان كثير التنقل – ومعه فرق من جيشه – فى أنحاء مصر المختلفة ، فلم يجد الوقت الكافى للنظر فى هذا الاقتراح والبت فيه .

وكان سعيد شديد العناية بجيشه ، ولهذا عهد فى أوائل سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) إلى سليمان باشا الفرنساوى بإنشاء مدرسة حربية جديدة لإعداد

ضباط يكونون أركان حرب للجيش ، وأنشأ سليمان المدرسة ، وألحق رفاعة وكيلا له ، وبعد قليل التمس سليمان إحالته على المعاش ، فعين رفاعة ناظراً للمدرسة .

قد يبدو هذا التعيين غريباً ، ولكن مسوغاته أن رفاعة كان يحمل لقب أمير الاى ، فقد كان الموظفون جميعاً – مدنيين وعسكريين – يمنحون الألقاب العسكرية فى ذلك العهد ، وبهذا أصبح رفاعة – الشيخ سابقاً والأميرالاى حاليا – ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة ، فماذا هو فاعل وثقافته دينية مذ كان يطلب العلم فى الأزهر ، أو مدنية مذ كان يطلب العلم فى باريس . . . ؟

لقد أتقن رفاعة اللغتين العربية والفرنسية ، وتخصص بفن الترجمة واشتغل بها ، ونشّأ جيلا من المترجمين هم خريجو مدرسة الألسن ،وكان يرجو أن يوفق – فى عهد سعيد – أن يعيد لمدرسة الألسن عهدها ، وأن يجمع تلاميذه حواليه فيستأنف نشاطه القديم ، ويترجم إلى العربية كنوز المعرفة الغربية وها هى الأقدار تنصبه ناظراً للمدرسة الحربية .

لم ييأس رفاعة ، بل رحب بالمركز الجديد ، فقد كانت له صلة قديمة بالمدارس الحربية منذ كان مترجماً بمدرسة الطوبجية بعيد عودته من باريس ، وبدأ يستعين بمن معه من رجال الجيش ، ولكنه سعى حتى صبغ المدرسة الجديدة بصبغة مدنية واضحة ، وأقحم الدراسات التى يتقنها ويميل إليها فى المنهاج إقحاماً ، فجعل دراسة اللغة العربية واجبة على الجميع ، وترك للتلاميذ حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين : الفارسية أو التركية ، وإحدى اللغات الأوربية : الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

ولقد كان رفاعة يقصد بهذه المحاولات أن يحيى عهد مدرسته القديمة الحبيبة إلى نفسه – الألسن – فإنه لم يلبث بعد هذه الخطوات الأولى أن أنشأ بالمدرسة الجديدة فرقة خاصة للمحاسبة ، ثم ألحق بها – بعد قليل – قلماً للترجمة اختار لرياسته تلميذه القديم الذى تخصص بترجمة الكتب الرياضية والحربية . السيد صالح مجدى بك .

قنع رفاعة بمركزه الجديدة ، واحتال كما رأينا حتى أضاف لمناهج الدراسة ما يرضى ميوله ورغباته ، ثم لم يلبث أن أقبل على العمل بنشاطه القديم الذى عرفناه ، فعهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة ، وتفتيش مصلحة الأبنية ، ثم رأى أن النهضة العلمية يجب ألا تعتمد على الترجمة وحدها ، بل يجب أن تعتمد أيضاً على إحياء المؤلفات القديمة ونشرها ، فسعى حتى صدرت الأوامر – كما يقول على مبارك – « بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة وعم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص وخزانة الأدب ، ومقامات الحريرى ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت . . . »

وبهذا يكون رفاعة أول واضع لعمادين من عمد النهضة الثقافية الحديثة ، وهما : الترجمة ، والنشر ؛ وسنرى فيما بعد أنه سيشارك أيضاً فى وضع العماد الثالث وهو التأليف .

فى أوائل سنة ١٢٧٨ هـ (أغسطس ١٨٦١ م) ألغيت هذه المدرسة الحربية – أى بعد خمس سنوات من إنشائها – وبعد أن بدأت تثمر وتؤتى أكلها ، وكانت قد ظهرت – كما يقول على مبارك – « نجابة تلامذتها ، واستفادتهم استفادة جيدة فى أقرب وقت » ؛ وهكذا أمسى رفاعة بلاعمل مرة أخرى ، وظل كذلك نحو السنتين .

٨ ـ رفاعة ناظر قلم الترجمة في عهد إسماعيل

فى ٧ مارس سنة ١٨٦١م فصل رفاعة من خدمة الحكومة بعد إلغاء المدرسة الحربية بالقلعة ، وظل كذلك إلى أن ولى العرش إسماعيل ، فبدأت تتجه إليه الأنظار من جديد .

كان إسماعيل يرمى – من يوم أن تولى الحكم – إلى إصلاح القضاء فى مصر ليفل من حدة الأجانب ، فبدأ يعد العدة لهذا الإصلاح بوضع المشروعات لترجمة القوانين الفرنسية ، وإعداد المصريين الذين يصلحون لتولى مناصب القضاء الجديد ، فلترجمة القوانين أنشىء قلم الترجمة الجديد ، ولإعداد القضاة أنشئت مدرسة الألسن الجديدة .

أنشىء قلم الترجمة الجديد فى أوائل عهد إسماعيل ، وعين رفاعة بك ناظراً له ، فاختار معاونيه فى العمل جماعة من تلاميذه القدماء خريجى مدرسة الألسن القديمة ، هم : عبد الله السيد ، وصالح مجدى ، ومحمد قدرى ، ومحمد لاظ ، وعبد الله أبو السعود ، واستقر هذا القلم فى غرفة من غرف ديوان المدارس ، وبدأوا بالقانون الفرنسى واشتركوا جميعاً فى ترجمته بإشراف رفاعة ، وطبعت هذه الترجمة فى مجلدات كثيرة فى مطبعة بولاق بين سنتى ١٢٨٣ و ١٢٨٥ هـ .

كان هوا هو العمل الأساسى لقلم الترجمة الجديد ، ولهذا لا نجد له أثراً آخر غير هذا الأثر القانونى ، ولهذا أيضاً نلاحظ أن هذا القلم خضع لتطورات كثيرة ، فكانت الأوامر تصدر تباعاً بنقل مترجميه إلى أعمال أخرى ، وكان رفاعة يحس بأثر هذه التصرفات الغريبة فيتألم ويشكو ؛ وفى نفس الوقت كان العمل يزداد بالقلم ، فقد كان المترجمون يعملون على ترجمة القوانين الفرنسية ،

والدستور العثمانى ، والجريدة العسكرية ، وحسابات البعثة المصرية بباريس ، كما كان أحد مترجميه يقوم بترجمة كتاب رفاعة فى تاريخ مصر إلى اللغة التركية .

كان يقوم بهذا الجهد الشاق خمسة من المترجمين — غير رفاعة بك — ثم طلب إليه أن يعمل على إتمام الأجزاء التى لم تترجم من جغرافية ملطبرون ، وكان من المنتظر أن يرحب رفاعة بهذا الطلب ، ولكنه ضاق به وضج بالشكوى ، وأرسل يعتذر لأن القلم لم يبق به غير ثلاثة من المترجمين ، هم : أبو السعود ، وصالح مجدي ، وحسن الجبيلى .

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى إضعاف هذا القلم — رغم ما كان يعقده عليه رفاعة من آمال — ، وأهمها فيما نرى سببان :

أولهما أن الغرض الأساسى الذى دفع الحكومة لإنشائه كان هو ترجمة القوانين الفرنسية ، فلما تمت ترجمة هذه القوانين قلت عناية الحكومة بالقلم .

وثانيهما — ولعله أهم السببين وأقواهما — يتلخص فى أن قلم الترجمة الجديد لم تقم إلى جانبه المدرسة التى تمده بالمترجمين الصالحين كما كان الحال فى عهد محمد على ، نعم لقد أنشئت فى عهد إسماعيل مدرسة للألسن ، ولكنها كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن سابقتها فى عهد محمد على .

أنشىء قلم الترجمة فى عهد إسماعيل فى سنة ١٨٦٣ ، ولم تنشأ مدرسة الألسن إلا فى سنة ١٨٦٨ ، وقد سميت المدرسة الجديدة باسم مدرسة الإدارة والألسن ، وكانت برامجها ترمى إلى العناية بدراسة القوانين وإعداد القضاة ورجال القانون لا لإعداد المترجمين ، ولهذا لم تلبث أن تطورت هذه المدرسة حتى أصبحت « مدرسة الحقوق » ، ولهذا أيضاً بدأت الحكومة تحس بحاجتها إلى مدرسة خاصة لتخريج المترجمين فأنشأت هذه المدرسة باسم « مدرسة الألسن » ولكن فى سنة ١٨٧٨ ، أى فى أواخر عهد إسماعيل ، وبعد وفاة رفاعة بنحو خمس سنوات وهذه المدرسة هى التى ستتحول مع الزمان فتصبح مدرسة للمعلمين .

٩ ــ صورته الجسمانية والنفسية

وصف صالح مجدى أستاذه رفاعة بأنه كان « قصير القامة ، عظيماً ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون ، ثابت الكون ، وكان فيه دهاء ، وحزم ، وجرأة وثبات وعزم ، وإقدام ورياسة ، ووقوف تام على أحوال السياسة ، وتفرس فى الأمور ، وكان حميد السيرة ، حسن السريرة » ، ثم قال : « وكان فيه زيادة كرم وسماحة ، وفريد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع ، جم الأدب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى إلى أسنى المناصب ، وجلس على أسمى المراتب ، ازداد تواضعه للرفيع والوضيع ، وتضاعف سعيه فى قضاء حوائج الجميع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها ، وكان قليل النوم ، كثير الانهماك فى التأليف والتراجم ، حتى إنه ما كان يعتنى بملابسه . . . »

هذه صورة تقريبية لرفاعة ، هى أقرب الصور للحقيقة ، فراسمها تلميذ رفاعة وأقرب الناس إليه وأكثرهم تعاوناً معه؛ وهى إلى هذا صورة صادقة للعالم الحق الذى عاش ومات للعلم وفى سبيل العلم ، والذى أكسبه العلم صفات العلماء الطيبة ، وخاصة التواضع وحب الخير ، والبعد عن زخرف الدنيا وزينتها .